المحاضرة (01) ضبط المصطلحات (التلقي، القراءة.....):

- نظريات القراءة
- نظرية القراءة
- تأصيل مصطلح القراءة
- مصطلح القراءة في الطوح الحداثي
- التلقي
- مفهوم نظرية التلقي

ضبط المصطلحات (التلقي والقراءة...)

تمهيد:

تعد نظرية القراءة من أكثر النظريات التي تحتاج مصطلحاتها إلى ضبط ورصد وتدقيق، فإن كان ما يعاب على كثير من النظريات النقدية عدم اتفاق أصحابها على مصطلحات موحدّة، فإن الاختلاف فيما بينهم لا يشكل في الغالب تنافرا معرفيا، وهذا لاختلاف زوايا النظر التي ينظر منها إلى هذه المصطلحات، مع الاحتفاظ بالمعنى الأصلي للمصطلح أو على الأقل الاحتفاظ بفكرته ومفهومه العام.و الملاحظ أن اللبس يحصل في البدأ في إضافة مصطلح (القراءة) إلى مصطلح (نظرية) و(ونظريات)لذلك وجب التفريق بينهما:

نظريات القراءة: يشمل هذا المسمّى كل النظريات النقدية التي اهتمت بالقارئ، ولم تهمله، على غرار المناهج المابعد حداثية، فهي النظريات التي أعلنت صراحة توجهها للقارئ، وهدفها القارئ كما يوضح ذلك تودوروف بقوله " صورة القارئ كما هي ماثلة في النصوص: القارئ بما هو شخصية(lelecteur comme personage)أو بما هو متلق (ou encore comme narateure)" [1]وهي بهذا تشمل نظرية التلقي، والتفكيك والتأويل والنقد الثقافي والنقد النسائي...

يُفهم من هذا القول أنّ مسمّى نظريات القراءة يُستعمل بوصفه إطارًا جامعًا لكل الاتجاهات النقدية التي أعادت للقارئ مكانته ولم تعد تنظر إلى المعنى بوصفه معطًى ثابتًا داخل النص أو ملكًا حصريًا للمؤلف، وهو توجّه ينسجم مع تحولات النقد الحديث وما بعد الحداثي التي جعلت القراءة فعلًا مُنتِجًا للدلالة. غير أنّ هذا التوسيع يحتاج إلى شيء من الضبط حتى لا يغدو المصطلح فضفاضًا؛ فليس كل منهج "التفت"

[1] عبد المالك مرتاض: نظرية القراءة، دار الغرب للنشر والتوزيع، الجزائر، 2003، ص28

إلى القارئ يُعدّ نظريةً في القراءة بالمعنى الدقيق، إذ تختلف المناهج في درجة مركزة القارئ داخل التحليل: فنظرية التلقي مثلًا تجعل فعل الاستجابة وأفق التوقع موضوعها المباشر، بينما يفتح التفكيك إمكانات المعنى ويزعزع استقراره بما يعزز حضور القارئ بوصفه فاعلًا تأويليًا، دون أن يكون دائمًا موضوعًا مستقلًا للدراسة، كما أن التأويل يركز على شروط الفهم وتاريخيته، في حين يقرأ النقد الثقافي والنقد النسائي النص ضمن شبكات الهوية والسلطة والتمثيل بما يجعل القارئ مشروطًا بسياقه الاجتماعي والثقافي. ويأتي استشهاد تودوروف مؤكدًا لهذا التحول حين يميز بين "صورة القارئ" كما تُبنى داخل النص (القارئ بوصفه شخصية/مخاطَبًا ضمنيًا) وبين القارئ بوصفه متلقيًا يمارس إنتاج المعنى؛ وبذلك يغدو جوهر هذه النظريات هو الاعتراف بأن المعنى يُصنع في منطقة التفاعل بين النص والقارئ، مع اختلاف أدوات كل منهج وحدود اهتمامه بالقارئ بين كونه بنيةً نصيةً ضمنية أو ذاتًا قارئةً في الواقع.

نظرية القراءة: أما هذا المسمى هكذا بصيغة الإفراد فيخص نظرية التلقي وذلك كونها حظيت بعدّة تسميات منها: نظرية الاستقبال، نقد التقبل، ونظرية القراءة، نظرية التأثير.

أما المصطلحاتُ المحورية التي تدور حولها نظريةُ القراءة، فإنها ترتبط ـ في جوهرها ـ بعناصرِ التواصل، لأن النص لا يُفهم بوصفه مادةً لغويةً صامتة، بل يُنظر إليه بوصفه رسالةً تُنجَز داخل وضعٍ تواصليّ كامل الأركان؛ ومن هنا يصبح التركيز موجَّهًا أساسًا إلى القارئ/المتلقي بوصفه الطرف الذي يمنح النصّ "حياته" ومعناه، إذ لا يتكوّن المعنى جاهزًا داخل الكلمات وحدها، وإنما يتشكّل عبر علاقة القارئ بالنص وتفاعله معه لحظة القراءة. وهذا ما تؤكده فاطمة البريكي حين توضّح تحوّل النقد الحديث نحو المتلقي، وتبيّن أن القراءة لم تعد استقبالًا سلبيًا، بل صارت فعلاً مُنتجًا للدلالة، إذ تقول: "ففعل القراءة لم يعد قراءة مجردة لبنية النص، إنما أصبح محاولة

فعلية للبحث عن جماليات العمل الأدبي، ومشاركة في فك رموزه، وملء بياضاته" [1]
وبناءً على ذلك، يغدو القارئ شريكًا في بناء المعنى لا مجرد شاهدٍ عليه: يملأ الفراغات التي يتركها النص عمدًا أو بحكم طبيعته الإيحائية، ويرجّح الدلالات الممكنة، ويعيد ترتيب الإشارات وفق خبرته الثقافية والمعرفية وتوقعاته ومقاصده ودرجة انتباهه وانفعاله؛ لذلك فالمعنى ليس "مادة" مستقرة داخل النص، بل هو أثرٌ يتولّد في منطقة التماس بين ما يقترحه النص وما ينجزه القارئ أثناء القراءة، وهذا هو ما يجعل النص قابلًا لتعدد القراءات واختلاف التأويلات دون أن يفقد شرطه التواصلي أو بنيته الدالة.

وبالمقابل، لا تُغفل نظرية القراءة جانبَ النص نفسه، لكنها تدرسه من زاوية أثره في المتلقي: كيف يوجّه النصُ القارئَ؟ وكيف يستثيره أو يُربكه أو يدفعه إلى التأويل؟ وكيف تُدار داخل النص علاماتٌ وإيحاءاتٌ تُحفّز القارئ على إنتاج معنى معيّن أو فتح احتمالاتٍ متعددة للمعنى؟ لذلك تُعدّ العلاقة بين القارئ والنص علاقةً تفاعليةً متبادلة، تتقدم فيها القراءة خطوةً خطوة، وتتحوّل فيها الدلالة تبعًا لسياق التلقي وظروفه.

كما تضع هذه النظرية في صلب اهتمامها عملية القراءة/التلقي في حدّ ذاتها، بوصفها فعلًا معرفيًا وتأويليًا مركّبًا، لا مجرد تمرير العين على الكلمات؛ فالقراءة تتضمن فهمًا واستنتاجًا وربطًا ومقارنةً وتأويلًا، وقد تتسع لتشمل التذوق والحكم وإعادة تشكيل الرؤية، وهو ما ينسجم مع طرح محمد مفتاح حين يربط القراءة بالفعل التأويلي نفسه ويُؤوّلها مؤلة "الحدّ الأدنى" من التأويل، إذ يقول: «نقترح درجة

[1] - فاطمة البريكي، قضية التلقي في النقد العربي القديم، دار الشروق، عمّان، 2006، ص 25.

دنيا من التأويل ستدعوها القراءة». [1]وبناءً على ذلك، لا تعود القراءة عملية محايدة أو واحدة النتائج، بل تصبح ممارسة تتولد فيها الدلالة عبر تفاعل القارئ مع النص وفق أدواته الذهنية وخبراته وسياقه؛ ولهذا تختلف نتائج القراءة باختلاف القرّاء، فلكل قارئ أفقُ توقعٍ خاص، ولكل تجربةٍ قرائية سياقُها وزمنُها وأسئلتها، مما يجعل المعنى قابلًا للتجدّد كلما تجدد فعل التلقي وتبدلت شروطه، لأن القارئ في النهاية لا "يستخرج" معنى جاهزًا بقدر ما "يبنيه" عبر التأويل الذي يقوم به لحظة القراءة.

تأصيل مصطلح القراءة:

إذا تتبعنا الجذر " قرأ " في المعاجم العربية نجد أنه يأتي بمعنى الجمع بمعنى أن القراءة هي: ضم الحروف إلى بعضها البعض أثناء الأداء التلفظي، والقرآن في أصل الكلمة المعجمي كالقراءة: مصدر قرأ، قراءة، قرآنا، ومنه قوله تعالى: " إن علينا جمعه وقرآنه، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه " (الأية 16، 17 سورة القيامة)، وفي هذا يؤكد ابن منظور على أن لفظ قرآن في اللغة مصدر مرادف للقراءة، أو أنه مشتق من القرائن أو من إقران الشيء بالشيء. [2]

أما إذا تتبعنا لفظ " القراءة " في المظان القديمة، فسنجد أنه كان يرد بمعنى العلم والمعرفة والإيمان والهدى، أي أن المفهوم الحداثي لمصطلح " القراءة " لم يرد في النصوص والمعاجم القديمة.

والحقيقة أن القراءة كأداءٍ تلفّظي عُني بها النقد منذ القديم وإن لم يكن ذلك بصفة مباشرة، لأن الإبداع عموماً لا يكون ممكناً إلاّ في وجود قارئٍ يقوم بفعل القراءة؛ فحتى إن كان "المنظّر النقدي منذ أيام اليونان ركّز على المبدع وعلى الإبداع دون أن

[1] - محمد مفتاح، التلقي والتأويل: مقاربة نسقية، الطبعة الأولى، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء/بيروت، 1994، ص 221.

[1]ينظر: ابن منظور: لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج 1، ص128 وما بعدها

يُلقي اهتماماً حقيقياً إلى دور المتلقي في فهم النص وتلقي رسالة الإبداع"، فإن ردود أفعال القارئ ظلت حاضرة ضمنياً عبر تصورات المحاكاة عند أرسطو، ومن خلال دراسة الأثر الذي تتركه وظيفة "التطهير *(catharsis)* "في نفس المتلقي؛ إذ لا معنى للحديث عن "أثر" أو "انفعال" أو "استجابة" دون أن تسبقه-على الأقل-عملية قراءة/تلقي تُفعِّل النص داخل وعي القارئ وتحوّله من كلامٍ بالقوة إلى معنى بالفعل.

وهذا ما يجعل أطروحات التلقي الحديثة أقرب إلى "كشف" ما كان كامناً أكثر من كونها قطيعةً مطلقة مع التراث؛ إذ لم تعد القراءة مجرّد متابعةٍ سطحية لمعاني النص، فقد صارت فعلاً حواريًا يقتضي امتلاك أدواتٍ معرفية تُؤهِّل القارئ لمساءلة النص ومفاوضته. وفي هذا المعنى يصرّح بسام قطوس بأن العلاقة بين النص والقارئ تحوّلت إلى شراكة إنتاجية، فيقول: "أجل، لقد غدا الحوار بين النص بثقافته ومرجعيته والقارئ المستند إلى مرجعية أو مرجعيات فكرية أهم ما يميز عمل الناقد التطبيقي أو الإجرائي، فلا يكفي أن يمتلك القارئ لغة شارحة إنما عليه أن يمتلك رؤية نقدية تمكنه من أن يكون صانعاً آخر أو مبدعاً ثانياً للنص، لأنه لا يكتفي بما يقوله النص على السطح، بل لا بد له من اختراق أعماقه، وكشف خباياه، وجلب العناصر الغائبة منه، وإحضار المسكوت عنه اجتماعياً وفنياً..." [2] وبناءً على ذلك، يغدو القارئ شريكًا فعليًا في إنتاج الدلالة، لأن المعنى لا "يوجد" كاملاً في الكلمات، بل يتولد من جدلٍ بين مرجعية النص وأسئلة القارئ وأدواته وقدرته على التقاط المسكوت عنه وتفعيل الإيحاءات، وهو ما يفسّر لماذا تختلف القراءات بتعدد الأفق الثقافي والخبرة التأويلية: فالقارئ الذي يملك "لغة شارحة" فقط قد يتوقف عند المباشر والظاهر، أما القارئ

---

[2] إبراهيم السعافين: إشكالية القارئ في النقد الألسني، مجلة الفكر العربي المعاصر، مج 34، ص 26

[2] - بسام قطوس، تمنّع النص متعة التلقي: قراءة ما فوق النص، أزمنة للنشر والتوزيع، عمّان، الطبعة الأولى، 2002، ص 9.

الذي يملك "رؤية نقدية" فيستطيع أن يعيد بناء النص من الداخل، ويقيم معه علاقة كشفٍ وتأويلٍ تتجاوز سطح العبارة إلى طبقاتها العميقة، وبذلك تتحول القراءة إلى فعلٍ منتج، لا إلى استهلاكٍ سلبي للنص.

ومن هنا يصبح سؤال "هل يمكن أن توجد ردود أفعال أو تأثير دون قراءة؟" تقريرًا لمنطق العملية الأدبية نفسها؛ فالأثر لا ينتج عن "النص وحده"، بل عن لقاء النص بوعيٍ قارئ قادر على الإنصات لما يقوله ظاهرًا وما يلمّح إليه باطنًا. وهذا المعنى—على حداثة صياغته في النقد المعاصر—له جذورٌ وإرهاصات في النقد العربي القديم، لا بوصفها نظرية مكتملة، بل بوصفها إشاراتٍ تؤكد أن المتلقي كان حاضرًا في خلفية التفكير النقدي والبلاغي، إذ تقول فاطمة البريكي: "إشارات مهمة تضمنتها بعض كتب النقد والبلاغة، حول دور المتلقي لدى كل من المبدع والناقد والبلاغي من شأنه أن يشكل مقدمة جادة لما عرفته حركة النقد الحديث من اهتمام بالمتلقي." [1] وتعليقًا على ذلك: فاشتراطات الإفهام والبيان، والتنبيه إلى أن الغموض المفرط يُعطّل الفهم ويقطع التواصل، ثم مراعاة أثر القول في السامع/القارئ—كلها كانت تعمل كآلياتٍ "ضمنية" لضبط فعل القراءة والتلقي داخل النقد القديم؛ أي إن القارئ كان معيارًا حاضرًا في تقويم جودة القول، حتى وإن لم تُبنَ حوله المصطلحات النظرية التي ستظهر لاحقًا في خطاب التلقي الحديث.

مصطلح القراءة في الطرح الحداثي:

علينا في البدء أن نميز بين مصطلح القراءة في التداول العام والعادي، ومصطلح القراءة بمفهومه النقدي المتخصص، ففي المتداول " أن أقرأ كتابا، فهذا يعني في الفهم العادي أن ألمّ بشتات المعرفة التي يحتوي عليها، بعد أن أفكّ رموز الخط الذي كتبت

[1] - فاطمة البريكي، قضية التلقي في النقد العربي القديم، دار الشروق، عمّان، 2006، ص 15.

به، لأن الفهم لن يأتي إلا بعد قراءة الخط أولا،" فالقراءة في مدلولها العام تنبني على الفهم أيضا وغايتها الفائدة النفعية، أمّا في المنظور الحداثي فالقراءة " سلوك حضاري، فكري، ذهني، روحي، جمالي، و ثقافي... " [2] وهذا التعدّد الذي تتشكل منه عملية القراءة، يفتح مجالات الفهم على النص الأدبي عموما، فتتعدّد القراءات، ذلك أن النص الأدبي يحتوي عل معان وسياقات متعدّدة، وأن الأثر الذي يتركه النص في القارئ ما هو إلّا نص جديد مفتوح، كون " الأثر يمتلك في وقت واحد معان متعددة، فذلك ناتج عن بنيته وليس عن عطب في عقول من يقرؤونه، تلك هي الخاصية الرمزية للأثر " [3] وهذا ما يدفعنا إلى القول بأن القراءة في الطرح الحداثي هي مجموعة سلوكات مترابطة، يشكل الفهم خاصية أساسية فيها.

تهدف القراءة إلى استنطاق المقروء وتشكيل الدلالة، وهي بهذا إعادة إنتاج المقروء، لذا يعرّفها رواد نظرية التلقي بأنها: " نشاط فكري مولّد للتباين ومنتج للاختلاف الذي هو من طبيعة اللغة...وليست القراءة مجرد صدى للنص إنما احتمال من بين احتمالاته الكثيرة و المختلفة." [4] لقد تجاوزت عملية القراءة الوصف الموضوعي للنص ولم يعد القارئ يهدف من خلالها إلى الكشف عما يقوله النص، بل صارت تحثه على كشف المسكوت عنه داخل النص.

إن القراءة بوصفها نشاطا ذهنيا قائمة على الملاحظة والمساءلة، فهذا يجعلها عملية تفاعلية أيضا، ويمكننا تلخيص آراء عبد الماك مرتاض حول نظرية القراءة فيما يأتي:

---

[1] ت. توردوف: القراءة كبناء، ترجمة محمد أديوان، مجلة الفكر العربي المعاصر، 1989، ص 106

[2] عبد الملك مرتاض: نظرية القراءة، دار الغرب للنشر والتوزيع، الجزائر، 2003، ص 28

[3] رولان بارت: النقد والحقيقة، ترجمة إبراهيم الخطيب، مجلة الكرمل، ع11، 1984، ص26

[4] هانز روبرت ياوس: جمالية التلقي من أجل تأويل جديد للنص، ترجمة رشيد بن حدو، منشورات الاختلاف، كلمة للنشر والتوزيع، ط1، 2016، ص97

1 – كل قراءة يمكن اعتبارها كفاتحة لقراءة أخرى تليها، وهذا يستلزم التوقف عن النظر إلى النص بوصفه أحادي المعنى.

2 – ينبغي النظر إلى القراءة بوصفها اختلافا على النص لا تماهيا فيه.

3 – النظر إلى النص على أنه فضاء مثقوب يحتوي على فراغات يجعلنا نتقبل قراءات عديدة ومختلفة لأثر واحد.

4 – يمكن أن تكون القراءة شرحا أو تحليلا، تفسيرا أو تأويلا، نقدا أو نقد النقد. [1]

التلقي:

تدور الدلالة المعجمية لمصطلح التلقي في مدار واسع لكنه محدّد فالتلقي هو الاستقبال والرجل يلقي الكلام أي ينقله، وتلقاه أي استقبله، وفلان يتلقى فلان أي يستقبله [2] وهذه الدلالة الموجودة في المعاجم العربية لا تختلف كثيرا عن مفهوم مصطلح التلقي لدى أصحاب النظرية، إذ يقول ياوس: " يعني مفهوم التلقي معنى مزدوجا يشمل معا الاستقبال (أو التملك)والتبادل " [3]

والواضح من التعريفين السابقين أن التلقي لابد وأن يكون بين طرفين اثنين، وتستعمل كلمة " reception " في الفرنسية والانجليزية أساسا في الفنادق والمؤسسات مما يوحي بوجود عملية تواصل بين شخصين طرفين أو أكثر(وهذا جعل بعض منتقديها يوجهون لأصحاب النظرية اللوم في اختيار هذا المصطلح).ويؤكد هانز روبرت ياوس أحد رواد نظرية التلقي على أن "... التلقي بمفهومه الجمالي ينطوي على بعدين، منفعل وفاعل في آن واحد، إنه عملية ذات وجهين أحدهما الأثر الذي ينتجه العمل في

---

[1] ينظر: عبد الملك مرتاض، نظرية القراءة، مرجع سابق، ص29

[2] ابن منظور: لسان العرب، مادة لقا، ج 15، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2002، ص 297

[3] هانز روبرت ياوس: جمالية التلقي، مرجع سابق، ص109

القارئ والآخر كيفية استقباله لهذا العمل أو استجابته له." [1]والحقيقة أن هذا المفهوم كان مشتركا بين عدّة مصطلحات تشير كلها إلى نفس المدلول، فاختلفت التسميات الدالة على نظرية واحدة: نظرية القراءة والتلقي، نظرية الاستقبال، جمالية التقبل، نظرية التأثير والاتصال، نقد استجابة القارئ (لدى الأمريكان)

مفهوم نظرية التلقي:

يعاني هذا المصطلح كغيره من لمصطلحات النقدية بتعدّد التعريفات وعدم وجود تعريف جامع لها، ولكن الشيء المتفق عليه من كل المنظرين لها أنها نظرية أعطت للقارئ أهمية خاصة وجعلت منه محورا أساسيا في العملية النقدية، إذ يقول ياوس " تعيد جمالية التلقي الدور الفعال الذي يخص القارئ، و كامل قيمته في التفعيل التعاقبي للأعمال عبر التاريخ..." [2]هي لا تركز على القارئ بصفة منفردة، ولكنها تدرس التجاوب والتفاعل الذي يحدث بينه وبين النص الأدبي عموما، لهذا تمّ اعتبارها " نظرية توفيقية تجمع بين جمالية النص وجمالية تلقيه، استنادا إلى تجاوبات المتلقي وردود فعله، بوصفه عنصرا فعالا وحيّا، يقوم بينه وبين النص الجمالي تواصل وتفاعل فني ينتج عنهما أثر نفسي ودهشة انفعالية، ثم تفسير وتأويل، فحكم جمالي استنادا إلى موضوع جمالي ذي علاقة بالوعي الجمعي. " [3]هذا ما جعل أصحاب هذه النظرية يكرسون جهودهم النقدية داخل دائرة الاهتمام بالعلاقة القائمة بين النص ومحمولاته اللغوية والفنية وبين المتلقي بالاعتماد على ذوقه الفني وحسّه الجمالي.

---

[1] هانز روبرت ياوس: جمالية التلقي، مرجع سابق ، ص 110

[2] المرجع نفسه، ص ن

[3] محمد عبد البشير مسالتي: مقولات نظرية التلقي بين المرجعيات المعرفية والممارسة الإجرائية، مجلة جيل الدراسات الأدبية والفكرية، ع4، ديسمبر 2014، ص 83

قدّمت نظرية التلقي رؤية مختلفة للعملية الابداعية، فقد نظرت إلى العمل الأدبي من زاوية مغايرة، ذلك أن " ما قامت به مدرسة كونستانس من خلال ممثليها المشهورين هانز روبرت ياوسhanz robertjauss و فولفاجانجايزرwolfgangiserهو أنها قد أعادت بناء تصور جديد لمفهوم العملية الابداعية _ من حيث تكونها عبر الزمن – التاريخ وطرق اشتغال القراءة ودور القارئ في إنتاج هذه العملية أو النص." [1]فالنص وفق هذا التصور لا يُعامل بوصفه منجزًا مكتملًا لحظة كتابته، بل بوصفه كيانًا يتشكّل تاريخيًا عبر تداول القراءات وتعاقب الأفهام، لأن المعنى لا يستقرّ نهائيًا داخل البنية اللغوية وحدها، وإنما يتجدد كلما تغيّرت الشروط الثقافية والأسئلة المعرفية وأنواق التلقي. وبذلك يصبح "زمن النص" جزءًا من تعريفه: ما يفتحه من إمكانات في مرحلة قد ينغلق في أخرى، وما يبدو هامشيًا في قراءة قد يغدو مركزًا في قراءة لاحقة، وهو ما يمنح العمل الأدبي قابلية الاستمرار والفعالية داخل سيرورة الثقافة.

ومن جهة أخرى، فإن الإشارة إلى "طرق اشتغال القراءة" و"دور القارئ في الإنتاج" تعني أن القراءة ليست تمرينًا محايدًا على الفهم، بل ممارسة تأويلية فاعلة تُنجز الدلالة داخل التفاعل مع العلامات والإشارات والفراغات التي يتركها النص؛ فالقارئ لا يكتفي بتلقي ما هو معطى، إذ يعيد ترتيب العلاقات الدلالية، ويرجّح الاحتمالات، ويستدعي خبرته اللغوية والثقافية لتفعيل المسكوت عنه، وبذلك يتحول المعنى إلى نتيجة تفاوض مستمر بين ما يقترحه النص وما ينجزه القارئ. وهذا المعنى يتأكد بوضوح في قول علي محمد اليوسف أن "القارئ يواجه النص وقد دخل معه في موقف حواري عبر عمليات غير مرئية من الفهم والتأويل والمشاركة الفعالة النشطة" [2] إذ إن

[1] أحمد بوحسن: نظرية التلقي والنقد الأدبي العربي الحديث، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، المغرب، 1993، ص20

[2] - علي محمد اليوسف، الحداثة: إشكالية التوصيل والتلقي، ابن النديم للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2015، ص60.

"الحوار" هنا لا يُفهم مجازًا فقط، بل بوصفه آلية اشتغال فعلية: فالنص يوجّه ويقترح ويستدرج، والقارئ يجيب ويعارض ويستنتج ويملأ البياضات، فتتولد الدلالة عبر هذا الاحتكاك التأويلي. وعليه، فإن اختلاف نتائج القراءة باختلاف القرّاء لا يرجع إلى تفاوت "الذائقة" وحدها، بل إلى اختلاف الأفق المعرفي وسياق السؤال ودرجة الوعي بالأدوات التي تنظّم الفهم والتأويل وتضبطه؛ لذلك تتجدد المعاني كلما تجددت شروط القراءة وتبدلت مقاصد المتلقي، لأن النص لا يُستهلك مرة واحدة، بل يُعاد تشغيله في كل تجربة تلقي جديدة .

تنعكس قيمة هذا التحول أيضًا في إعادة توزيع الأدوار داخل العملية الأدبية دون إلغاء لأي طرف؛ فالمبدع يضع إمكانات الدلالة، والنص يُنظّم هذه الإمكانات في بنية قابلة للتشغيل، والقارئ يُفعِّلها ويحوّلها إلى معنى تاريخي متعين داخل سياقه. ويعضد هذا المنظور ما يورده الشريف مرزوق حين يقرر أن المنجزات التي قامت عليها المقاربات الحديثة للتلقي تتقاطع مع أصلٍ مهمّ في تراثنا البلاغي، إذ يؤكد أن البلاغيين العرب أكدوا على أن مهمة الناقد لا تنحصر في إيضاح النص وشرحه، بل في الكشف عن الآثار التي يتركها النص على القارئ، مؤكدين على أن المتلقي هو المركز في تحديد معنى النص.[1] فهذه العبارة تُظهر بوضوح أن المعنى لا يُستنفد عند حدود البنية وحدها، إنما يتحدد كذلك بما يُحدثه الخطاب في وعي القارئ واستجابته، وهو ما ينسجم مع فكرة "المعنى المتولد" الذي يتجدد عبر فعل القراءة وتبدّل شروطها.

ويزداد هذا المعنى رسوخًا حين يربط ذلك بجذور الاهتمام بالمتلقي في النقد العربي القديم، حيث أن المتلقي لم يكن عنصرًا هامشيًا، بل قد يحوز مكانة متقدمة داخل تصور العملية الخطابية؛ إذ يذكر أن البلاغة العربية وعَتْ أن اكتمال العملية الإبداعية يستلزم حضور ثلاثة عناصر، ويستشهد بمقولة الجاحظ: "مدار الأمر

[1] -ينظر: الشريف مرزوق، نظرية التلقي وأطروحاته، مجلة النص، المجلد 07، العدد 01، 2021، ص 199

والغاية التي يجري إليها القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام". وتعليق ذلك أن هذا القول يجعل القراءة/التلقي شرطًا جوهريًا لفاعلية الخطاب: فالنص لا يحقق غايته ما لم يُفضِ إلى فهمٍ لدى المتلقي، وما لم ينجح في الإفهام بوصفه مقصدًا تواصليًا وجماليًا معًا؛ وهو ما يعني ضمنًا أن "مكانة المؤلف" لا تُلغى، لكنها لا تكفي وحدها لتحديد قيمة العمل، لأن القيمة تكتمل عند نقطة التلاقي بين القول ومن يتلقاه، أي عند تحقق المعنى أثرًا وفهمًا داخل سياق القراءة.

وبهذه المصطلحات العامة التي حاولنا ضبطها وتلخيصها، يمكننا في المحاضرات اللاحقة التعرف على كل العناصر الأساسية التي تقوم عليها نظرية التلقي وذلك أن نتتبع سيرورة التلقي من الخطاب الشفوي والكتابي إلى الفكر اليوناني ثم النقد العربي القديم لنصل في الأخير إلى تلقيها في النقد العربي المعاصر.

مقولة نقدية للتفكير التحفيزي (01)

" النص الأدبي هو تخييل في المقام الأول، يغفل الكثير من التفاصيل ويعتمد نوعا من الاقتصاد العلامي، تاركا استكمال هذه الإضافات لمبادرات القارئ ولمجهوداته التعاونية، ولذلك فإنه في حاجة إلى القارئ لتحيين بنياته النصية."

ميلود حبيبي: النص الأدبي بين التلقي وإعادة الإنتاج، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، 1999، ص 167

[1] - الشريف مرزوق، نظرية التلقي وأطروحاته، مجلة النص، المجلد 07، العدد 01، 2021، ص200